رحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية

"قراءة نقدية"

الدكتور عبد الله بن محمد المطوع*

-بكالوريوس في الآداب والتربية- تاريخ من جامعة الرياض (الملك سعود حالياً) عام 1397هـ

- ماجستير تاريخ حديث من جامعة كاليفورنيا- لوس أنجلس بالولايات المتحدة الأمريكية. 1402هـ

- دكتوراه تاريخ حديث من الجامعة نفسها. 1409هـ

- يعمل الآن أستاذاً مشاركاً بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود.

التمهيد:

قام شاب سوري يدعى فتح الله الصايغ، في العقد الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي/ العقد الثالث من القرن الثالث عشر الهجري، برحلة استمرت سنوات كثيرة إلى مناطق واسعة شملت: الصحراء السورية والعراقية وبلاد فارس والجزيرة العربية[1]. هذا البحث لا يهدف إلى فحص كل ما جاء من روايات حول مغامرات الصايغ ومشاهداته في تلك البلدان والمناطق التي زارها خارج الجزيرة العربية، بل إن الهدف هو قراءة نقدية لما ورد من روايات حول الدرعية. وسيكون ذلك بمقارنة ومطابقة وتحليل ما أورده الصايغ من روايات حول الدرعية بصفته شاهد عيان، مع ما هو معروف ومتواتر في المصادر التاريخية من حقائق تاريخية ثابتة.

(1) سيرد التعريف بهذه الرحلة في سياق لاحق.

وليست محل اجتهاد أو تحليل، بالإضافة إلى ذلك فإن ما أورده حول الدرعية في مجال العادات والتقاليد سيتم مقابلته ما هو معروف من عادات وتقاليد أهل ذلك الزمان.

المقدمة:

بعد قيام الدولة السعودية الأولى وتوسعها السريع لتشمل معظم أرجاء الجزيرة العربية، من أهم التطورات، إن لم يكن أهم التطورات التي شهدتها المنطقة العربية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر والثلث الأول من القرن الثالث عشر الهجري، الموافق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر والعقدين الأولين من القرن التاسع عشر الميلادي(2). ونتيجة لازدياد أهمة تلك الدولة عاماً بعد عام، ازداد اهتمام القوى الإقليمية والعالمية بها، وذلك لسبر أغوارها ومعرفة أحوال سكانها وعاداتهم، من هنا جاء دور الرحالة العلميين، أو المكتشفين كما يسميهم الغربيون، الذين يتسلحون أو يتذرعون باسم العلم من أجل القيام بتلك المهمات التي لا تخلو من المخاطر والصعوبات. كانت الدرعية تمثل درة التاج للدولة السعودية الأولى، فهي العاصمة ومقر الحكم ومعقل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولذا فلا غرو أن أصبحت هدفاً للوفود السياسية والرحالة. في هذه الظروف تأتي رحلة فتح الله الصايغ إلى بادية الشام وصحاري العراق وبلاد فارس والجزيرة العربية التي أخذته إلى الدرعية، موضوع هذا البحث. لكن قبل مناقشة هذا الموضوع لابد من التعريف بالرحالة ورحلته.

ترجمة المؤلف:

(2) للمزيد حول هذه الدولة وتوسعها، انظر: حسين بن غنام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام.- ط1.- الرياض: المكتبة الأهلية، 1368هـ، وعثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد: حققه وعلق عليه عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ.- ط4.- الرياض: دائرة الملك عبد العزيز، 1402هـ.

عرف مؤلف هذه الرحلة نفسه بأنه: فتح الله ولد أنطوان الصايغ اللاتيني، وقد ولد في مدينة حلب ببلاد الشام سنة 1205هـ/ 1790م، إذ أشار إلى أن عمره كان ثمانية عشر عاماً عندما ابتدأ العمل في التجارة سنة 1222هـ/ 1808م[3]، عمل في التجارة أكثر من عام، ما بين قبرص وبلاد الشام، ولكنه لم ينجح في مسعاه فعاد مكسور المخاطر إلى مسقط رأسه. بعد عودته بأيام قلائل تعرف على رجل أوربي قيل له إنه تيودور لاسكاريس دي فنتيميل من ذوي النفوذ في مالطة[4]. ومن الجدير بالذكر أن عائلة لاسكاريس تدعى أنها من نسل الأباطرة البيزنطيين الذين يحملون اللقب نفسه.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه العائلة على صلة وثيقة بأخوية فرسان مالطة، وقد أصبح لاسكاريس نفسه أحد فرسان مالطة في وقت اندلاع الثورة الفرنسية. مما جعله ينضم إلى حملة نابليون بونابرت بعد احتلاله مالطة وهو في طريقة إلى مصر[5]. عمل في خدمة الاستعمار الفرنسي في مصر حتى اضطر الفرنسيون إلى الرحيل في أواخر سنة 1216هـ/ 1801م. وبالرغم من فشل مشروع نابليون في مصر، إلا أنه لم ييأس، ففي ظل اشتداد التنافس الاستعماري البريطاني- الفرنسي، فكر في منازلة بريطانيا في الهند وذلك بالوصول إليها عبر أراضي الدولة العثمانية وفارس[6]. وفي سياق هذه التطورات والمنافسات الاستعمارية. ظهر لاسكاريس في حلب سنة 1224هـ/ 1809م إذ تعرف بالصايغ هناك واستأجره ليعلمه اللغة العربية. بعد ستة أشهر عرض لاسكاريس عل الصايغ أن يعمل مترجماً له في رحلة إلى الصحراء السورية وغيرها من المناطق بشرط أن يطيع سيده طاعة مطلقة، أو كما عبر عنها الصايغ بقوله: "أريد منك أن تعاهدني بالله أن تمشي معي بموجب ما أقول

(3) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ. ص2/ 1.

(4)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ. ص2/ 1.

(5) هنري لورنس. المغامر والمستشرق: ترجمة بشير السباعي.- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. (د. ت). ص13- 14.

(6) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: هنري لورنس. المغامر والمستشرق. ص17- 22. 21- 32.

لك، ولا تطلع لي من خلاف، فكان جوابي: الذي تريده أنا معك به، أريد منك عدم البحث والتفتيش عن جميع ما أقول وأفعل أيضاً (أيضاً)، أريد منك إطاعة (طاعة) عمياً (عمياء) (7). كان الجواب بالموافقة على كل هذه الشروط.

التعريف بالرحلة:

غادر لاسكاريس ومترجمة، الصايغ حلب في 18 فبراير سنة 1225هـ/ 1810م، وقد تبضعوا بكثير من البضائع التي يحتاجها البدو وسكان قرى الريف الشامي(8). وبعد مضي عام على هذه المهمة أخبر لاسكاريس مترجمة عن الهدف الحقيقي من وراء الرحلة، واتخذا اسمين مستعارين فحمل لاسكاريس اسم: الشيخ إبراهيم القبرصي، أما الصايغ فتلقب بـ: عبد الله الخطيب (9). وعلى خلاف ما يعتقده البعض فقد أكد لاسكاريس على الصايغ منذ بداية الرحلة أن يلتزم بمنهجية دقيقة في تدوين كل ما يقع أمام ناظريهما أو يسمعانه بآذانهما، أو كما قال الصايغ على لسان لاسكاريس:

"افتكر بالذي جرا لنا من حين خروجنا من حلب وقيده، وكل يوم أريد منك تقيد الذي نشوفه ويجرا علينا من مليح وقبيح، وعند المسا تقرا لي الذي كتبته حتى اقيده عندي الفرنساوي. قلت له السمع والطاعة، ومن يومه ابتديت احرر كل الذي يحصل لنا يوماً بيوم، وعند المسا قبل النوم اقرأ له وهو يقيدوا عنده في كتاب قصص جميع ما جرا تلك النهار. وأبقى ورقة الطيارة عندي بصندوقي. واستمريت على هذا الحال كل يوم اكتب ما يتوقع

(7)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ. ص3/ 1.
(8)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ. ص4/ 1.
(9)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ. ص12/ 1.

لنا، ونشاهد ونسمع مدة ست سنوات سياحتنا، وحتى حررت كام يوم بعد نياحة المرحوم لاسكاريس أبي الروحي، التي صارت منتهى حياته"(10).

وهنا يثبت الصايغ بلغته العامية أنه اتبع منهجية متميزة في تدوينه للأحداث أولاً بأول ولم يترك مجالاً للخطأ أو النسيان أو الاعتماد على الذاكرة، وقد استمر على هذه الحال مدة سنوات الرحلة، بل وإلى ما بعد وفاة لاسكاريس.

وبهذه المنهجية، وتحت غطاء التجارة أخذ يتنقلان بين مناطق البدو في الصحراء من أجل التهيئة لتنفيذ مخطط نابليون. خلال هذا التجوال الطويل نفذا ست رحلات، كان من أهمها تلك الرحلة التي أوصلتهما إلى الدريعي بن شعلان(11)، وتمخض عنها ما سماه بالرباط أو حلف مع شيوخ القبائل في الصحراء السورية أقروا فيه بزعامته، وأن يكونوا معه ضد الدولة العثمانية والدولة السعودية(12). ولإكمال هذا المشروع قام كل من لاسكاريس والدريعي والصايغ برحلة إلى شرق بلاد فارس، ووقعوا معاهدة تحالف مع الشيخ سعد البخاري(13).

بعد إنجاز تلك المهمة الصعبة، في أوائل سنة 1814م/ 1229هـ(14)، عاد الدريعي ومن معه صوب بلاد الشام، وفي صحراء العراق وصلهم هجان يحمل رسالة من الإمام السعودي يدعو فيها الدريعي لزيارة

---

(10) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ. ص8/ 2.

(11) هو الدريعي بن مشهور بن منيف بن غرير بن شعلان بن جبران بن راشد. شيخ قبيلة الرولة من عنزة. عاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وهو من مشاهير زعماء البادية وشجعان العرب. له عدد من الوقائع. لا نعلم تاريخ وفاته، ولكن من المؤكد أنه توفي قبل مناخ المربع سنة 1249هـ، إذ كان ابنه صحن هو شيخ القبيلة في ذلك الوقت. أنظر: طلال بن عبادة الحريري الشمري، عقود الجواهر في المختار من تراجم فرسان العرب الأواخر، ط1، ج1، 1427هـ/ 2006م، ص63- 64.

(12) انظر قائمة القبائل الموقعة على هذا الرباط في: فتح الله الصايغ. رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحاري العراق والعجم والجزيرة العربية؛ تحقيق يوسف شلحد.- ط2.- دار طلاس، 1994م، ص342، وللاختصار سيشار إلى هذه النسخة فيما بعد بشلحد.

(13) لم أعثر على ترجمة له، ولكنه في رسالة أوردها الصايغ عرف نفسه هكذا: سعد بن بدر بن سعد بن عبد الله ابن بركات بن علي البخاري، وقد وصفه الصايغ بأنه رئيس قبائل عرب الهند ويقطن التخوم الشرقية من لاد الهند، أنظر: مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص98/ 2، 101/ 1.

(14) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص103/ 2.

الدرعية، قبل الدريعي الدعوة بعد التشاور مع أعضاء الوفد، وذهب إلى الدرعية وبصحبته الصايغ وتمكن كذلك من عقد حلف مع ذلك الإمام(15)، الأمر الذي يعد نجاحاً آخر في سبيل تحقيق مهمة لاسكاريس.

اختتم لاسكاريس والصايغ مهمتهما بهذه الإنجازات العظيمة، وبدا وكأن كل شيء قد تم إنجازه حسب المخطط، لذا عادا إلى حلب حيث انطلقت الرحلة. لإكمال المهمة، سافرا إلى إسطنبول، ولكن المفاجأة حلت بهما هناك عندما علما بهزيمة القوات الفرنسية في موسكو، وبدأت مشروعات نابليون تتهاوى. أمضى لاسكاريس عدة أشهر في إسطنبول، ثم نُصح بطلب الحماية البريطانية والسفر إلى القاهرة إذ وافته المنية هناك فوضع القنصل البريطاني يده على أمتعته وأوراقه، ولا يعلم أحد ما حل بها(16)، على الأقل حتى الآن.

ومن العجيب أن هذه الرحلة، بالرغم من أنها كتبت باللغة العربية ومؤلفها عربي سوري، إلا أنها وصلت إلى الغرب قبل الشرق، والسبب يعود إلى اهتمام الغرب بالشرق ضمن مشروعاته الاستعمارية. بينما كان الشاعر الفرنسي الفونس دولامارتين نازلاً في الصحراء الممتدة ما بين طبرياً والناصرة، أبدى لدليله رغبته في التعرف إلى حياة البادية وكان يشير في حديثه إلى لاسكاريس متأسفاً على ضياع مذكراته. هنا تدخل الدليل وذكر لسيده أنه يعرف شاباً كان يتحدث دائماً عن هذه الرحلات، وعليه تم الترتيب لكي يشتري دولامارتين مذكرات فتح الله الصايغ (17). نالت مذكرات الصايغ إعجاب دولامارتين فأمر مترجمه بترجمتها ترجمة مستعجلة إلى ما يسمى ب: (Langue- Franque).

(15) ليس في المصادر المعتبرة ما يشير إلى هذه الزيارة أو هذا الحلف المزعوم.

(16) انظر: شلحد، ص12، 14، وهنري لورنس، المغامر والمستشرق، ص38، وقد ذكرت بعض المصادر أن الإنجليز أتلفوا هذه المذكرات، أنظر: بول هنري بوردو. ساحرة الصحراء، الليدي إيستر ستانهوب في الشرق: ترجمة بشير السباعي.- القاهرة: القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003م، ص138.

(17) انظر: مقدمة شلحد، ص14.

ومن ثم قام هو بترجمتها وضمنها الجزء الرابع من كتابة: "رحلة إلى الشرق"، الذي صدر في باريس سنة 1251هـ/ 1835م [18].

مصداقية الصايغ:

ولدت الشكوك مبكرة في مصداقية الصايغ، إذ شك رئيس الجمعية الآسيوية في صحة هذه الرحلة منذ صدورها. فما كان منه إلا أن أرسلها إلى المستشرق فولجنس فرينيل (Fulgence Fresnel)، الذي كان قنصلاً لفرنسا في القاهرة ثم في جدة. دافع فرينيل عن هذه الرحلة في أول الأمر، ولكنه بعد أن عرضها على بعض المثقفين السوريين أفادوا أن الأمر قد يكون صحيحاً بالنسبة للأحداث التي جرت في الصحراء السورية، أما بالنسبة للمناطق البعيدة فإن الأمر مختلف[19]. أمام هذا الأمر عرض فرينيل ما يخص الدرعية من روايات على الشيخ أحمد الحنبلي[20]، فجاء جوابه دحضاً لكلام الصايغ، وأكد أن المسيحي (الصايغ) لم تطأ قدماه الدرعية، العاصمة السعودية" [21].

---

(18) انظر:
Lamartine A. Voyage en Orient, Vol. IV, Paris, 1853, p.45, George M. Haddad, athallah Al-Sayegh and account of A Napoleonic Mission among the Arab Nomads, History or Fiction?, Studia Islamica,#24, 1966, pp.107,122.

(19) , George M. Haddad, athallah Al-Sayegh and account of A Napoleonic "Mission among the Arab Nomads, History or Fiction?, p.114

(20) هو الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد بن عفالق ولد في الأحساء سنة 1155هـ تقريباً. نشأ يتيماً من أبيه وأمه؛ لذا رباه الشيخ محمد بن فيروز ودرس على يديه وعلى غيره من علماء الأحساء. لما أستولى السعوديون على الأحساء ذهب إلى المدينة المنورة حتى امتد إليها حكم الدولة السعودية فعينة الإمام سعود بن عبد العزيز قاضياً فيها، وأخذ يدرس كتب ورسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب. استمر على هذه الحال حتى قدوم قوات طوسون باشا فهرب منها إلى الدرعية. وأثناء حصار الدرعية قام بدور الوسيط في الصلح ولكنه لم ينجح فعرض عليه إبراهيم باشا أن يرده إلى المدينة فأبى، ولذا فعند استسلام الدرعية أمسكه وعذبه وقلع أسنانه، ولما عرف به من العلم ورجحان العقل طلبه محمد علي إلى مصر وأكرمه وجعله مؤدباً لأولاده وشيخاً للمذهب الحنبلي. توفي بالقاهرة سنة 1257هـ/ انظر: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، علماء نجد خلال

لهذا بعث فرينيل بهذه النتيجة إلى رئيس الجمعية الآسيوية سنة 1254هـ/ 1838م، ولكنه لم ينشرها في جريدة المجلة إلا في سنة 1288هـ/ 1871م، أي بعد وفاة دولامارتين بثلاث سنوات، وبرر ذلك بأنه لا يريد أن يسبب إشكالاً بين كل من فرينيل ودولامارتين(22).

وهكذا هاجرت هذه الرحلة إلى الغرب وبقيت حبيسة المكتبة الوطنية بباريس لا يعرف عنها إلا القليل من المستشرقين والمهتمين بتاريخ المنطقة العربية. كان جورج حداد سباقاً في إثارة الاهتمام برحلة الصايغ عندما نشر بحثاً سنة 1966م، أورد فيه قصة هذه المخطوطة وكيف وصلت إلى المكتبة في باريس وما أثير حولها من نقاش. أشار حداد إلى ظهور عدد من المشكلات في رواية الصايغ مما قد يؤدي بالقارئ إلى التساؤل عن صحة الرواية وأمانة المؤلف(23) . كما أشار إلى أن الصايغ يصر على إظهار نفسه في دور البطل، وأن روايته تعاني من كثير من المبالغات والتناقضات والتضاربات مع الحقائق المعروفة.

وحول التناسب في حجم المخطوطة أورد حداد ملحوظة مهمة وهي أن الجزء الخاص ببلاد فارس لا يحتل سوى ست صفحات الأمر الذي جعله يستنتج أنه كلما ابتعد الصايغ عن الصحراء السورية ووادي الفرات تصبح الرواية أكثر اختصاراً. وبشكل عام يرى أن هذه الرواية أقرب إلى عالم الرومانسية والخيال منها إلى التاريخ(24).

ستة قرون.- ط1.- مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، 1389هـ، ج1، ص163- 166، وعثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص421.

(21) George M. Haddad, athallah Al-Sayegh and account of A Napoleonic Mission among the Arab Nomads, History or Fiction?, p.115

(22) Ibid.pp.114- 115، ومقدمة شلحد، ص14.

(23) George M. Haddad, athallah Al-Sayegh and account of A Napoleonic Mission among the Arab Nomads, History or Fiction?, p.111

(24) Ibid.pp.114,117, 120

وفي السياق نفسه كتب المؤرخ الفرنسي هنري لورانس مقالة حول لاسكاريس تطرق فيها إلى رحلة الصايغ ومصداقيتها، وقد عبر عن ذلك بقوله: "تتنافى رواية فتح الله تماماً مع مؤشرات المصادر الأخرى"[(25)].

في الجانب العربي بقيت هذه الرحلة أو الرواية مجهولة لعقود طويلة، حتى أن الزركلي عندما ترجم للصايغ في كتاب الأعلام لم يذكر هذه الرحلة في حين ذكر كتابه المرسوم بـ: "المقترب في حوادث الحضر والعرب"[(26)]. بقى هذا الوضع على حالة حتى عثر منير العجلاني على المخطوطة ونقل منها بعض الأوراق حول زيارة الصايغ إلى الدرعية، وقدمها للشيخ حمد الجاسر الذي قام بنشرها في مجلة العرب[(27)]. ونظراً لما أثير حول الرحلة من شكوك فقد طلب الشيخ حمد من يوسف شلحد النظر في هذا الموضوع. وبعد تفحص للمخطوطة أفاد شلحد أن الترجمات الكثيرة حرفت كلام الصايغ وأبدلت المعاني وأدخلت فيها ما لا وجود له في النص الأصلي. وعليه أصدر حكمه قائلاً: "وبعد البحث الطويل أميل إلى الظن أن المنتقد، أي فتح الله الصايغ، والمنتقد أي الشيخ الحنبلي كلاهما على صواب" [(28)]. واختتم شلحد تقريره موضحاً رأيه الشخصي، وهو أنه "يميل إلى التصديق بصحة كلامه عن الدرعية" [(29)].

وبالرغم من شغف الباحثين ومراكز البحوث بهذه الرحلة، إلا أنها بقيت محدودة الأطلاع، حتى قام يوسف شلحد بنشر وتحقيق الرحلة كاملة باللغة العربية سنة 1991م، كما ترجمها إلى اللغة الفرنسية في السنة نفسها. وبهذا أصبحت الرحلة بعد نشرها متاحة بشكل أكبر للباحثين والمهتمين بكتب الرحلات، الأمر الذي

(25) هنري لورنس، المغامر والمستشرق، ص41.

(26) انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام.- ط7.- بيروت: دار العلم للملايين، 1986م، ج5، ص134.

(27) انظر: رحلة إلى الدرعية. مجلة العرب، العددج1، 2، س19، 1404هـ/ 1984م. ص152- 168..

(28) انظر: حول رحلة فتح الله الصائغ إلى الدرعية. مجلة العرب، العدد ج9، 10، س19، 1405هـ/ 84/ 1985م، ص698.

(29) نفسه، ص705.

زاد الاهتمام بها وردود الفعل تجاه ما ورد بها من روايات [30]. عمد شلحد في تحقيقه لهذه الرحلة إلى التصرف في النص في بعض المواضع، وإعادة صياغته في مواضع أخرى، مع تأكيده على الاحتفاظ بالأصل[31].

ولكي لا نعطي فرصة أو مجالاً للأخطاء التي حصلت بسبب الترجمة؛ فيجب العودة إلى الأصل كما وضعه المؤلف، ولذا ففي هذا البحث سيتم الاعتماد على نسخة من مخطوطة الصايغ الأصلية. تقع هذه المخطوطة في مئة وتسع وعشرين ورقة، وبكل ورقة صفحتان، والأصل محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2298[32]. ومن باب الاستئناس فسوف يتم الإحالة إلى النسخة التي حققها شلحد.

خطاب الدعوة لزيارة الدرعية:

كما أشرنا سابقاً أنهى فتح الله الصايغ والدريعي بن علان ولاسكاريس رحلتهم إلى بلاد فارس في صيف 1229هـ/ 1814م، وعندما وصلوا إلى منطقة الحماد بشرق العراق وإذا بكتاب يصل إلى الدريعي يفترض أنه كان مرسلاً من الإمام عبد الله بن سعود. قال الصايغ "وكان بهولاي (بهذه) اللفظات لا غير: "بسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد.... من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الوهاب ابن سعود... نعلمك يا ابن شعلان انكان تأمن (إن كنت تؤمن) بالله وحده ولا تشرك به، تطيع أمر عبد الله... وتحضر حالاً إلى عندنا... إياك والعناد فإنه من أعظم الكفر"، ثم ختم الرسالة "ابن سعود عبد الله" [33]. هكذا قال الصايغ أنه نقل حرفياً من خطاب

(30) انظر على سبيل المثال: عبد الكريم بن إبراهيم السمك. جوانب من تاريخ الدولة السعودية كما جاءت في مذكرات الصايغ الحلبي. أحوال المعرفة، العدد 21، ربيع الآخر 1422هـ، ص16- 20، ولنفس الكاتب، جوانب من تاريخ الدولة السعودية الأولى كما جاءت في أوراق لاسكاريس الفرنسي. أحوال المعرفة. العدد 22، رجب، 1422هـ، ص26- 29، ودراسة نقدية لمذكرات لاسكاريس، الشبكة العنكبوتية. http://albowida.net/vb/",archive/index.php/t-1542.html، منتديات البويضا، ص1- 2.

(31) انظر: مقدمة شلحد، ص24- 25.

(32) أشكر الزميل أ. د محمد خير البقاعي الذي أمدني بنسخة من هذه المخطوطة.

(33) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص104/ 1، 104/ 2.

الإمام عبد الله بن (سعود) الذي وصفه بأنه غير مختوم وحجمه صغير بعرض ثلاثة أصابع، وطول شبر، وعلل ذلك بأنه يريد أن يخالف طريقة السلطان العثماني الذي اتسمت خطاباته بكبر حجمها، وهذا أمر معقول، ولكن ما نقله الصايغ من هذا الخطاب ورد به بعض الأخطاء التي تجعلنا نشكك في صحته. في مستهل الرسالة ورد اسم الحاكم خطأ فحسب التسلسل الزمني الذي ساقه الصايغ في رحلته لابد أن يكون الحاكم هو الإمام عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود إذ أن والده توفي في شهر جمادي الاولى سنة 1229هـ/ أبريل 1814م، فكيف وقع الصايغ في هذا الخطأ وهو الذي يزعم أنه ينقل حرفياً من الخطاب الأصلي. بالإضافة إلى ذلك فقد ورد اسم عبد الله مجرداً في وسط الرسالة، ثم بصيغة ابن سعود عبد الله مما يدل على أن المقصود هو الإمام عبد الله بن سعود(34).

في المقابل نرى الصايغ يذكر في موضع آخر من ملحوظاته حول الدرعية أنه في يوم مغادرتهم للدرعية جاء هجان من عرب ينبع بحمل خبر تقدم قوات محمد علي إلى المدينة المنورة(35). إن مثل هذا الخبر، وهو ربط حدث بحدث، يجعل تذكره أمراً سهلاً بل ويبقى في الذاكرة لوقت طويل، ولهذا فإن من يبحث عن تبرير لأخطاء وتناقضات الصايغ سيجد أن مهمته صعبة جداً. وكما هو معروف فإن قدوم القوات العثمانية المصرية إلى ينبع كان في سنة 1226هـ/ 1811م، وبهذا يصبح الحاكم هو الإمام سعود بن عبد العزيز وليس عبد الله بن سعود كما ورد في أكثر من موضع من الرسالة الموجهة للدريعي.

ومن الأمور الملفتة للنظر في هذه الرسالة عبارة: "إياك والعناد فإنه من أعظم الكفر"، وهذا أمر لا أساس له في الشرع، وخطأ لا يمكن أن يقع فيه حاكم دولة قامت على أسس دينية ولحكامها إسهامات علمية.

(34)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص104/ 1، 104/ 2.
(35)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص115/ 1، 115/ 2.

أما العبارة الختامية في الرسالة "ابن سعود عبد الله"، فيبدو أنها ختم أو تحية الإمام عبد الله بن سعود التي يختتم بها رسائله, لكنها جاءت مخالفة عبارته المعهودة;إذ ان الإمام عبد الله كان يختتم رسائله بهذه العبارة في ختم دائري وهي: "الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود" (36).

الطريق إلى الدرعية:

بعد التشاور بين أعضاء الوفد، في أمر الدعوة استحسنوا تلبيتها لعدة أسباب منها:

استكشاف أخبار ذلك الإمام وأخبار دولته، بالإضافة إلى إمكانية إبرام صلح معه الأمر الذي يقوى حلفهم مع القبائل، ويمنع عنهم غزواته. تشكل وفد من أثني عشر شخصاً برئاسة الدريعي بن شعلان، وعضوية ابنه سعدون، وابن أخيه الأمير هجرس، وابن عمه جبل الدريعي، واثنين وصفهما الصايغ بأنهما من وجهاء القبيلة، وفتح الله الصايغ، وكذلك خمسة من العبيد(37).

(36) انظر نماذج من تلك الرسائل في عد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. الدولة السعودية الأولى.- ط1.- القاهرة: دار نافع، 1976م، ص431، 434، 437.

(37)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص104/ 2، 105/ 1.

بعد مسيرة أربعة أيام باتوا ليلة عند بدو من قبيلة شمر، وصفهم بأنهم وهابيون أو كما قال: "وهذه كانت أول قبيلة الذي شفناهم تبع الوهابي". ذكر الصايغ أنه كان عليهم إخفاء الغليون والدخان (التتون) لأن عقوبة المدخن القتل[38]، وهذا كلام غير صحيح؛ لأن المدخن قد يعاقب ولكن بالتأكيد ليس بالقتل.

إن مما يثير التساؤل والتعجب حول خط سير الوفد هو أنهم في اليوم الخامس دخلوا أرض نجد وقابلوا قبائل كثيرة ومروا بكثير من القرى، ولكن رحالتنا لم يورد اسم أي قبيلة أو أي قرية. والحقيقة أن الباحث جورج حداد كان محقاً عندما لاحظ تناسب معلومات الصايغ مع قربه وبعده عن الصحراء السورية ووادي الفرات، إذ يرى أنه لم يعرف المناطق البعيدة التي ربما أنه لم يزرها أبداً. وعليه لم يستطيع الصايغ حبك قصص ومواجهات وهمية مثل تلك التي صورها في الصحراء السورية[39].

أما في مجال تضاريس نجد وجغرافيتها، فقد ذكر أنها تشمل على وديان وجبال وسهول ومياه[40]. وهنا لابد من القول أن المياه غير متوافرة بالصورة التي أوردها الصايغ الذي جاء إلى المنطقة في فصل الصيف، إذ من المعروف أن نجداً شحيحة الأمطار، وأن تدفق المياه في الوديان يكون لمدة قصيرة عند هطول الأمطار في فصلي الشتاء والربيع. وبالرغم من أن مهمة الوفد سياسية في المقام الأول، إلا أن المرء يتوقع من مستكشف رحال، جاء وفي ذهنه جمع الأخبار والمعلومات أن يجد كثيراً من المعلومات التفصيلية الدقيقة عن طريق سير الرحلة ومحطاتها، وأن تأتي هذه المعلومات بشكل متسلسل فيما يشبه اليوميات، ولكن الصايغ اختار إهمال ذلك كله فلم يورد أي

(38) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص105/ 2.

(39) George M.haddad, Fathallah Al- Sayegh and his account of A Napoleonic Mission among the Arab Nomads, History or Fiction?, pp. 117-118

(40) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

معلومة حول البلدان والقرى والقبائل التي مر بها. وفجأة وإذا بهم بعد مضي أربعة عشر يوماً من تاريخ بداية رحلتهم، يصلون إلى الدرعية(41).

وصف الدرعية:

بادئ ذي بدء أورد الصايغ اسم الدرعية بهذا الشكل "الضرعية"(42)، وهذا الخطأ لا نجد ما يبرره في ظل منهجية الصايغ وطريقته في تدوين الأحداث بشكل يومي. ومن الطريف في هذا السياق أن كلمتي الدرعية والدريعي متقاربتان جداً في الرسم، فكيف يخطئ في الأولى ويصيب في الثانية؟ إن أول ما لفت انتباه الصايغ في هذه المدينة هو أن أعضاء الوفد اضطروا للمشي أربع ساعات بين النخيل المتشابكة التي رأى أنها مفيدة جداً لمنع تسلل الأعداء(43). والحقيقة أن من يزور الدرعية، أو حتى أي بلدة نجدية، لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام إذ أن أشجار النخيل تتوزع بين الحيازات، حسب الملكيات الفردية، إلى بساتين مفصولة عن بعضها البعض بسياج أو جدار. كما أن من أصول زراعة النخيل ترك مسافة عدة أمطار بين النخلة والأخرى، غالباً ما تكون بطول عسيب النخلة. ومن هنا نرى الخلل في رواية الصايغ إذ لا يمكن لأشجار النخيل أن تنمو وتثمر بشكل صحيح عندما تتشابك مع بعضها، أم ما ذكره بخصوص أنها مفيدة جداً لمنع تسلل العدو إلى البلدة فو غير صحيح على إطلاقه، إذ يمكن لأفراد جيش العدو التسلل عن طريق البساتين إذا لم تكن مسورة بسور جيد. وفي الوقت نفسه فهي قد تكون مفيدة بعض الشيء في إبطاء تقدم الجيش المهاجم، وكذلك للتترس بأشجار النخيل في حالة الدفاع عن البلدة. وزيادة على ذلك فإن طبوغرافية المكان لا تسمح بتشابك أشجار النخيل بالشكل الذي وصفه الصايغ، إذ تتوزع المزارع والبساتين على ضفتي وادي حنيفة، أما بطن الوادي فهو لا يصلح ولا يمكن زراعته

(41)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

(42)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

(43)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

بالمحاصيل، ولذا يبقى قضاء مفتوحاً على شكل ممر يخترق الدرعية بكافة مواقعها وأحيائها من الشمال إلى الجنوب[44].

ذكر الصايغ أن البلدة محاطة بتلال سود من النوى (العجوة) التي تكدست على مر السنين مشكلة ما يشبه السور. أو كما قال: "وصارت حصناً للبلد كمثل السياج" [45].

ومن الواضح أن هذه الرواية مبالغ فيها بشكل كبير، ومما يضعفها أن نوى التمر لا يمكن التفريط به بهذا الشكل، فقد كان يستخدم في ذلك الزمان علفاً للدواب، وإن زاد عن الحاجة فيصعب تصوره بالشكل الذي رسمه الصايغ.

أخيراً وصل الوفد إلى بلدة الدرعية، التي وصفها الصايغ بقوله: "وهي مركزة على جانب وادي" [46]. لم يذكر الصايغ اسم ذلك الوادي. وهو وادي حنيفة المعروف الذي يعد من أشهر الأودية في شبه الجزيرة العربية، كما أنه أشهر واد في منطقة العارض والحاضن لحضارتها عبر العصور. وهنا لابد من التوقف قليلاً مع وصف الصايغ الذي يدل على أنه لم يزر هذه المنطقة إذ أن القادم إلى الدرعية من الشمال لابد ان يسلك أحد طريقين: إما طريق المرتفعات الجبلية، وهي صفراء منبسطة تتناثر عليها أحياء الدرعية وتطل على وادي حنيفة في الأسفل. الطريق الثاني: وهي الطريق الأسهل حيث يمر عبر وادي حنيفة مخترقاً أحياء ومواضع ونخيل الدرعية على اليمين وعلى اليسار، وأظن أن هذا الطريق هو الذي يعينه الصايغ؛ لأنه ذكر كثقافة النخيل. ويلاحظ هنا أن الصايغ لو

(44) للمزيد حول الدرعية وأحيائها، انظر: عبد الله بن محمد المطوع. مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى.- الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، 1424هـ، ص23- 82، وعبد الله بن محمد ابن خميس، الدرعية.- ط1.- الرياض: مطابع الفرزدق، 1402هـ.، ص401- 407.

(45) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

(46) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

سلك هذا الطريق فمن المؤكد أنه سيترك انطباعاً قوياً يصعب نسيانه، وعليه فإن وصفه سيكون مغايراً لما أورده، إذ لابد له من ملاحظة هذا الوادي العظيم، وما يقع على جانبه من الأحياء والأسوار والمواضع والبساتين.

من المرجح أن الصايغ نقل رواياته عن بعض من زاروا الدرعية، ولذا صاغها في قالب عام فجاءت خالية من التفاصيل الدقيقة أو المشاهدات الحقيقية. إن الدرعية بطبوغرافيتها وموقعها الجغرافي المتميز وعبق تاريخها ما زالت تثير شعوراً بأهميتها وعظمتها، خاصة عند من يزورها متمثلاً تاريخها وسالكاً ذلك الوادي الذي يفترض أن الصايغ قد سلكه، ولكن هيهات لمن لم يلاحظ عند زيارته لها سو أشجار النخيل المتشابكة، وتلال العجوة، ثم ينتهي به المطاف إلى البلدة الواقعة على جانب الوادي.

يمكن أن ينطبق وصف الصايغ للدرعية أي حي من أحيائها إذ يقع كل منها على إحدى ضفتي الوادي، ولكن بما أنه تحدث عن مقر الحكم وسكن الإمام فلابد أنه يقصد حي الطريف. يقع هذا الحي المتميز على الجانب الغربي من وادي حنيفة، وهو مقر الحكومة والحكام، والقصور العظيمة، ولكنه ليس حياً عادياً من الناحية الجغرافية إذ يقع على رأس جبل، الأمر الذي يزيد من عظمته وتأثيره في شعور وذهن إليه، فما بالك بمن يزوره[47].

ذكر الصايغ أن مباني "السرايا" قصر الحكم في الطريف مبنية من الحجر وتتكون من طابقين[48]. وعند التدقيق في هذا الكلام نرى أنه غير صحيح؛ إذ أن مباني الطريف التي لا يزال بعضها شاخصاً مبنية من الطين،

(47) عبد الله ابن خميس، ص405.

(48)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 1.

ويقتصر استخدام الأحجار فيها على بعض الأجزاء في المبنى[49]. أم بخصوص تعدد الطوابق، فقد يوجد في بعض بيوت الأمراء وعليه القوم، ولكنه يقتصر على بعض الأجزاء في المبنى مثل المجلس أو أماكن الاستقبال.

وحول هذا الموضوع ذكر الصايغ أنه في اليوم الثامن من وصوله الدرعية سُمح له مع بقية الوفد بالتجول في البلدة ووصفها بأنها: "بلدة صغيرة المياه بها وافر (بها مياه وافرة) داخل البلد، عماراتها من حجر (الحجر) الأبيض"[50]. إن وصف الصايغ هنا ليس وصف من شاهد المكان، إذ أن الدرعية ليست بلدة صغيرة، بل هي في الواقع بليدات صغيرات، أو أحياء متفرقة متناثرة على جانبي وادي حنيفة[51]. ظن الصايغ أن الدرعية بلدة تقليدية تتخذ الطابع الدائري الشكل، ولها أبواب تفتح في الصباح وتغلق في المساء.

أما من يتمعن في جغرافية البلدة وكيفية الاستيطان فيها، فسيرى أنها أقرب إلى الشكل الطولي منها إلى الدائري، أو كما قال الشيخ عبد الرحمن ن حسن في وصفها: "البلد مطاول" [52]، أي أنها ممتدة بشكل مستطيل.

كانت المياه متوافرة في الدرعية خاصة في سنوات الأمطار، ولكنها ليست "داخل البلد"[53] كما يحلو للصايغ تصويرها؛ لأن أحياء الدرعية المتباعدة تتربع على المرتفعات في حين تقع المزارع والبساتين في الأسفل على ضفتي الوادي حيث تتوافر المياه التي تستخرج من الآبار بواسطة السواني (حيوانات جر الماء من البئر). غاب عن

---

(49) حول كيفية تحضير الطين واستخدامه في البناء، انظر: عبد الله بن إبراهيم العمير. العمارة التقليدية في نجد.- الرياض: الجمعية السعودية للدراسات الآثارية، 1428هـ، ص39- 48، 55- 62.

(50) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص109/ 2.

(51) الأطلس التاريخي للملكة العربية السعودية.- ط2.- الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1421هـ، ص96- 97، ووليام فيسي. الدرعية والدولة السعودية الأولى؛ ترجمة مؤسسة التراث.- الرياض: مؤسسة التراث، 1419هـ، ص80.

(52) عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب. المقامات: دراسة وتحقيق عبد الله بن محمد المطوع.- الرياض: دار الملك عبد العزيز. 1426هـ، ص128.

(53) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص109/ 2.

ذهن الصايغ أن منطقة نجد كانت تتعرض لموجات من الجفاف والقحط، مثلما حصل سنة 1220هـ/ 1805م عندما أصيبت البلاد بقحط استمر ست سنوات، وطال أثره كثيراً من الناس بما فيهم سكان الدرعية إذ انتشر بها الوباء والمرض، مما أدى إلى كثير من الوفيات(54).

أضاف الصايغ في وصفه السابق معلومة أخرى حول مادة البناء في منازل الدرعية وهو أنها مبنية من الحجر الأبيض، وهنا لابد من القول أن الحجر الأبيض غير معروف في منطقة الدرعية، وربما أن المقصود هو الحجر الأصفر المتوافر بكثرة في الجبال المجاورة. وكما أشرنا سابقاً فإن مباني الدرعية تتكون أساساً من الطين، مع استخدام الأحجار في بعض الأجزاء من المنزل كالأساسات مثلاً. أما اسوار البلدة فيغلب عليها الطابع الحجري(55).

قدر الصايغ سكان الدرعية بسبعة آلاف نسمة، لكن هذا الرقم مخالف لكثير من التقديرات حول عدد سكانها في ذلك الوقت والذي تتراوح ما بين ثلاثة عشر ألف نسمة إلى ثلاثين ألف نسمة. وبخلاف ما ذكره الصايغ من أن معظم سكان الدرعية من أقارب الإمام الحاكم ورجال دولته، فهذا الكلام يمكن أن يكون صحيحا في حالة حي الطريف، أما بقية أحياء الدرعية الأخرى فقد شهدت تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين من مختلف المناطق، الأمر الذي زاد في عدد سكانها (56).

أثناء التجوال في الدرعية وصف الصايغ البضائع المعروضة في سوقها، وهي بضائع لا تميز فيها إذ يمكن أن تجدها في سوق أي بلدة عربية. إن موضع سوق الدرعية في وسط الوادي بين حيي الطريف والبجيري يفرض

(54) عثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص284- 285، 293، 298- 299.

(55) للمزيد من المعلومات، انظر: عد الله بن إبراهيم العمير. العمارة التقليدية في نجد، ص28- 36، 63- 64.

(56) قُدر عدد سكان الدرعية في ذلك الوقت بخمسة عشر ألف نسمة، انظر: عبد الله بن محمد المطوع. مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى، ص92- 93.

نفسه على من يزور تلك البلدة حتى ولو ليوم واحد، فما بالك بزائر مكث بها أربعة عشر يوماً. لم يكن وصف الصايغ معبراً عن حالة السوق وتركيبته وتميزه عن غيره من الأسواق، كما ورد عند بعض المؤرخين المعاصرين.

بخلاف ذلك نرى ابن بشر يورد وصفاً مليئاً بالحيوية، يجعل القارئ وكأنه ينظر إلى سوق الدرعية، أو كما سماه موسمها، إذ ذكر أنه يقع في وسط وادي حنيفة بين حي الطريف من الجهة الغربية وحي البجيري من الجهة الشرقية، والدكاكين تقع على ضفتي الوادي الشرقية والغربية. كما أضاف وصفاً لمشاهدته الشخصية لذلك السوق إذ أشار إلى أنه نظر إليه ذات مره، من مكان مرتفع، وكان سوقاً هائلاً يمتد على مد البصر في الوادي، وكان موسم الرجال في جانب، وموسم النساء في جانب، ولا تسمع إلا دوي أصوات المتبضعين مرددين كلمة بعت واشتريت[57]، فأين هذا من وصف الصايغ لنفس المكان؟

قال الصايغ عن أهل الدرعية إن: "مروتهم (مروءتهم) قليلة (أي خاملون)، لا قوي لم ولا استطاعة للشغل والتعب، بل يحبون الراحة وقلة العمل"[58]، والحقيقة أن الصايغ تحامل على سكان العاصمة، وكلامه مردود عليه من الواقع والتاريخ، فلو أنه زار الدرعية فعلاً لرأي ما شيدته أيادي أولئك الرجال من معمار، الذي مع أنه تعرض للتدمير إلا أن ما تبقى منه حتى يومنا هذا، ما زال يمثل وثيقة وشاهداً على نشاط أهل ذلك الزمن، ويثير في النفس الدهشة والإعجاب بقوة وعظمة من عمروه. بالإضافة إلى تلك الأنشطة المعمارية، فقد كانت الدرعية في ذلك الزمن تعج بأنواع من الأنشطة العلمية والسياسية والعسكرية إذ تخبرنا كتب الحوليات بأخبار العلماء والوفود والغزوات والحروب التي قادها وشارك فيها أهل تلك المدينة. وكذلك الأمر في ميدان التجارة، مما

(57) للمزيد من المعلومات، انظر: عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص44، 226، 347، 435، وعبد الله بن محمد المطوع. مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى، ص121- 137، ومؤلف مجهول. كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب؛ تحقيق وتعليق الشيخ عد الرحمن ن عد اللطيف ابن عبد الله آل الشيخ.- الرياض: دائرة الملك عبد العزيز، (د. ت)، ص103- 104، 190- 191.

(58) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص110/ 1.

أثار إعجاب بعض المعاصرين من غير أهلها مثل صاحب لمع الشهاب الذي أشاد بطاقة أهل نجد وقدرتهم على تحمل المشاق والغربة[59].

أشار الصايغ إلى بعض المزروعات في الدرعية وذكر من بينها قصب مص (قصب سكر) وجوز الهند[60]، وهذان المحصولان، حسب علم الباحث، ليسا من محاصيل الدرعية. إن المرء ليعجب كيف أخبرنا الصايغ أن قدومه كان في أشهر الصيف، وهو موسم الرطب وجني التمور، ومع ذلك لم يلحظ شيئاً من ذلك المحصول المهم في سوق البلدة، والذي لابد أن يكون ظاهراً في كل مكان من البلدة وخاصة في سوقها العام.

ومثلما كانت معلومات الصايغ خاطئة عن الأشياء التي زعم أنه رآها، فكذلك جاءت معلوماته عن جغرافية الجزيرة العربية ركيكة ومشوهة. قال الصايغ في معرض حديثه عن محاصيل الدرعية: "فالشيء الذي ينقصهم جميع ما يكون يجلبه لهم أهالي الينبع (ينبع) بحراً إلى مكا"[61]، (أي إلى ميناء مخا الواقع في اليمن على البحر الأحمر والذي اشتهر بتصدير القهوة). وهنا نسوق ملحوظتين: الأولى: أن الصايغ بلغت به الثقة إلى حد القطع عندما قال: "جميع ما يكون" أي أن كل شيء يحتاجه أهل الدرعية يجلب إليهم من مخا، وهذا أمر غير صحيح فلو أن صاحبنا زار الدرعية فعلاً، لعرف أن معظم البضائع تأتي عن طريق الخليج العربي مروراً بميناء العقير في الأحساء، وكذلك تأتي من العراق وبلاد الشام، هذا الإضافة إلى ما يرد إلى الدرعية من سلع تأتي من الحجاز واليمن وعلى رأسها القهوة. الملحوظة الثانية: تتعلق بجهل الصايغ بموقع هذين الميناءين الواقعين على البحر الأحمر، فلو عرف أن ميناء ينبع أقرب بكثير إلى الدرعية من ميناء مخا، لما قال أن أهل ينبع يأخذون بضاعتهم إلى مخا لكي يسوقها في الدرعية.

(59) مؤلف مجهول، كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، ص189- 192.

(60)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص110/ 1.

(61) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص110/ 1.

لم يكتف الصايغ بتلك الملحوظة، بل قال وكأنه يريد زيادة في الإيضاح: "فأهالي مكا يجيبوا لوازم الناقصة للدرعية ويبيعوهم، ويشتروا من عندهم غنم وجمال ومشالح وخيل وما يلزمهم، لأن كل نهار أربعاً (الأربعاء) فيه بازار (سوق) بالدرعية للبيع والشراء من مواشي ولبابيد ومشالح وشملات. وأهالي الدرعية تبيع على أهالي قرى بلاد الحضر موت"[62]. وبالرغم من أن الصايغ استدرك على نفسه وخفف من صيغة المبالغة السابقة، إلا أن مشكلة المسافات ما زالت عالقة في ذهنه، فهو يظن أن أهل مخا وحضر موت يمكنهم التردد على الدرعية والتبضع منها بشكل أسبوعي.

وفي السياق نفسه أشار الصايغ إلى انعقاد سوق (بازار) في يوم الأربعاء من كل أسبوع[63]، وهذا أمر غير معروف في منطقة نجد، ولابد أن الصايغ تأثر بما سمعه عن الأسواق الأسبوعية المنتشرة في جنوب غرب الجزيرة العربية. ومن المعروف أن سوق يوم الجمعة في منطقة نجد يتميز عن غيره من الأيام، وذلك نظراً؛ لأن من عادة البدو وأهل القرى المجاورة القدوم إلى البلدان الأكبر حجماً، حيث تقام صلاة الجمعة ويحضرون معهم منتجاتهم وبعض المواشي لبيعها في السوق، ومن ثم شراء ما يحتاجونه من غذاء وملابس وغيرها. إن هذه الممارسة التي ما تزال قائمة في بعض المناطق الريفية في نجد تزيد من حركة السوق في يوم الجمعة. فكيف برجل يزعم أنه زار الدرعية ومكث بها أسبوعين ولم يلحظ هذه الظاهرة، بل ويذكر أن سوق الدرعية هو يوم الأربعاء؟ ومما يلفت النظر أن الصايغ في ملحوظاته عن سوق الدرعية لم يورد أي ملحوظة عن علاقة هذا السوق بمحيطه القريب، فلم يحدثنا عن أي نشاط تجاري مع البلدان المجاورة مثل الرياض ومنفوحة وبلدان الخرج وغيرها من البلدان النجدية التي يمكنها تسويق منتجاتهم في العاصمة. أما الأماكن المعروفة تقليدياً أنها على ارتباط قوي بأسواق نجد مثل

(62)نفسه، ص110/ 2.

(63)نفسه، ص110/ 1، 113/ 1.

الأحساء والكويت والعراق وبلاد الشام فليس لها ذكر في رواية الصايغ، بل إنه يصر، من خلال ملحوظاته، على ارتباط أكبر بأسواق اليمن، حتى أن الزائد من الزكوات يباع على أهالي مخا[(64)]

لقاءات مع الإمام في الدرعية:

كان اللقاء الأول مع الإمام الحاكم، الذي لم يوفق الصايغ في ذكر اسمه بشكل صحيح، مع أنه يزعم أنه نقل اسمه حرفياً من رسالة ذلك الإمام إلى الدريعي بن شعلان، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. لم يضع الوفد وقتاً، فبعد تناول وجبة الغداء طلب الدريعي لقاء "ابن سعود"، وعند مثولهم في المجلس لم تتم المصافحة، بل كانوا يؤشرون بأيديهم ويقولون: "السلام عليك يا ابن سعود"[(65)]، وحسب المصادر المعتبرة فإن هذا اللقب "ابن سعود" لم يكن معروفاً في ذلك الوقت. بالإضافة إلى ذلك فإن الصايغ يتحدث عن رجل ذي لحية سوداء، قدر عمره بنحو خمسة وأربعين عاماً[(66)]. إن هذا الوصف يمكن أن ينطبق على الإمام عبد الله بن سعود، ويؤيد ذلك التسلسل، ويؤيد التسلسل الزمني لرحلة الصايغ، إذ أن وصول الوفد إلى الدرعية حسب كلامه كان في صيف 1814م/ 1229هـ. ولو سلمنا جدلاً بأن الحديث عن الإمام عبد الله بن سعود، فإن مهمة من يحاول تبرير أخطاء الصايغ لن تكون سهلة[(67)]، إن لم تكن مستحيلة. تبقى هذه الرواية مرتبكة، ومتضاربة بفعل الصايغ نفسه، لا بفعل غيره، إذ ذكر أنه في اليوم الذي كان الوفد يهم بمغادرة الدرعية، وصل خبر خروج القوات المصرية- العثمانية من ينبع إلى المدينة المنورة!!! والحقيقة أن هذا أمر يثير العجب قبل التساؤل إذ أن كل المصادر المعتبرة تنص على أن وصول القوات المصرية- العثمانية كان في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز. ليس ذلك

(64) نفسه، ص112/ 1.

(65) نفسه، ص106/ 2.

(66) نفسه، ص106/ 2.

(67) انظر على سبيل المثال: شلحد، ص305. هامش رقم 34، وعبد الكريم بن إبراهيم السمك. جوانب من تاريخ الدولة السعودية كما جاءت في مذكرات الصايغ الحلبي، ص17- 20.

فحسب، بل إن رواية الصايغ لا تصمد طويلاً أمام النقد التاريخي، إذا علمنا أن المصادر المعاصرة لتلك التطورات تضع ذلك الحدث قبل مجيء الصايغ بثلاث سنوات، بل وتنفي وجود الأمير (الإمام) عبد الله بن سعود في الدرعية؛ لأنه في الوقت كان على رأس جيش يتصدى للجيش للغازي، وقد تمكن من هزيمته في معركة وادي الصفراء الشهيرة سنة 1226هـ/ 1811م، ولكن طوسون باشا بعد أن تراجع إلى ينبع، نظم صفوف جيشه ثم تقدم وتغلب على الجيش السعودي، وسار ليستولي على المدينة المنورة(68).

وفي المقابل لو سلمنا بصواب الرواية السابقة حسب تسلسل الأحداث الذي أورده الصايغ نفسه، فإن الحاكم في الدرعية لابد أن يكون هو الإمام سعود بن عبد العزيز، ولكن تظل المعضلة قائمة فى رواية الصايغ إذ ان الأوصاف التى أوردها لا تنطبق على الإمام سعود بن عبد العزيز الذي بلغ الخامسة والستين من العمر(69). بالإضافة إلى ذلك فقد وصفه الرحالة الإسباني دومنجو باديا الذي شارك في حج سنة 1221هـ/ 1807م، بأنه قد أصبح رجلاً مسناً ذا لحية بيضاء طويلة(70). وبالرغم من أن بوركهارت أخطأ في تقدير عمر الإمام سعود عند وفاته إذ قدره ما بين الخمس والأربعين إلى الخمسين سنة، إلا أنه ذكر ما كان شائعاً من صفاته فوصفه بأنه كان رجلاً وسيماً جداً، ذا لحية طويلة وشعر كثيف جداً حتى أن أهل الدرعية يسمونه بـ"أبو شوارب"(71).

---

(68) حول هذه التطورات، انظر: عثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص322- 331، وعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، المقامات، ص110- 115، وعبد الرحيم عبد الرحيم. الدولة السعودية الأولى، ص304- 311.

(69) انظر تاريخ ميلاده في: حمد بن محمد بن لعبون. تاريخ حمد بن محمد بن لعبون؛ جمعه وقدم له وحققه وعلق عليه. عبد العزيز بن عبد الله بن لعبون.- الكويت: دار ابن لعبون للنشر والتوزيع. 1429هـ/ 2008م، ص431.

(70) دومنجو باديا. رحالة إسباني في الجزيرة العربية؛ ترجمه ودرسه وعلق عليه صالح بن محمد السنيدي.- الرياض: دائرة الملك عبد العزيز، 1429هـ، ص168، وعثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص342، 348.

(71) John Lewis Burckhardt, Notes on the Bedouins and Wahabys, London: Henry Colburn And Richard Bentley, 1831, vol. II, pp. 120- 121

ومهما كان الأمر فإن إشكالية الاسم ستظل قائمة، بمعنى هل كان الإمام الحاكم في الدرعية هو عبد الله، بناءً على ما نقله الصايغ حرفياً من نص الرسالة التي أشرنا إليها سابقاً؟ أم أنه سعود إذا أخذنا بالربط بين الإمام الحاكم وخبر قدوم القوات المصرية- العثمانية إلى ينبع؟

لم يكن اللقاء الأول موفقاً، حسب ما أورده الصايغ؛ لأن الإمام (سعود أو عبد الله) كان غاضباً من أعمال الدريعي بن شعلان خاصةً في معركة حماة[72]، مما جعله يأمرهم بالعودة إلى نزلهم. بقى الدريعي ومن معه معزولين ليوم وليلة من دون أكل أو شرب، وفي اليوم الثالث أرسل إلى الإمام يقول؛ "الذي في خاطرك افعله"، وجاء الجواب بإرسال خمسة وعشرين عبداً مسلحاً لحراسة النزل[73]. وبهذا أصبحوا تحت الحصار، أو سماه الصايغ "اليسق"، لمدة يومين قبل أن يسمح للدريعي بلقاء الإمام والتحدث بحديث أبعد ما يكون عن الدبلوماسية والواقعية، وقد اختتمه بهذه العبارة: "افعل ما تريد يا خاين عهود العرب، وبواق (خائن) في من يدعس بساطك، وسوف تندم، أنا واحد من جملة ألوف وصفوف إن قتلت لا أنقص، وإن بقيت طيب لا أكثر... الخ"[74].

إن المتمعن في هذا الكلام سيجد صعوبة في تصور أنه كان موجهاً إلى حاكم أعظم دولة عرفتها الجزيرة العربية منذ قرون طويلة، ناهيك عن أن هذا الكلام دار في مجلسه وأمام رجال دولته. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه التصرفات التي أشار إليها الصايغ من حصار ومنع للأكل والشرب وغيرها تعد بعيدة عن الأخلاق الإسلامية، والعادات العربية في كرم الضيافة، وأصول استقبال البعثات والوفود، لاسيما وأن هذا الوفد جاء بدعوة

(72) زعم الصايغ أن الجيش السعودي المكون من مئة وخمسين ألف مقاتل التقى بجيش الدريعي ن شعلان في معركة قرب حماة، وقد انتصر جيش الأخير، ولكن المصادر لا تذكر شيئاً من ذلك سوى غارة قام بها الإمام سعود بن عبد العزيز سنة 1225هـ/ 1810م على أطراف بلاد الشام الجنوبية. للمزيد انظر: مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، 88/ 2- 93/ 2، وقارن بما ورد عند عثمان بن عبد الله بن بشر- عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص308- 310.

(73) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص106/ 2.

(74)نفسه، ص108/ 1، 108/ 2.

رسمية من حاكم الدولة. ومما يبدو هنا أن كثيراً مما أورده الصايغ، من حوارات، وإقامة جبرية، مثلها مثل بقية أخباره الأخرى عن الدرعية كانت من نسج خياله المتكيء على ما سمعه من روايات ممن زار تلك البلدة أو سمع بشيء من أخبارها.

انفرجت الأزمة، حسب رواية الصايغ، بعد ذلك اللقاء ثم أخذ الوفد في التردد على مجلس الإمام، وفي اليوم الثاني عشر من مدة إقامتهم في الدرعية، ذهب الدريعي والصايغ إلى مجلس الإمام وطلبا خلوة لم يحضرها بجانب هؤلاء الثلاثة سوى عبد الله الهذال(75) الذي وصفه بكاخية (أي وكيل) ابن سعود. تمخض عن هذا الاجتماع المغلق الخروج بتحالف الطرفين على أن يكون الدريعي سلطان الشمال، وابن سعود سلطان القبلة(76). وعند النظر إلى هذا الكلام وعرضه على ميزان النقد التاريخي نجد أن وزنه قليل جداً إذ لم يرد في المصادر التاريخية ما يؤيد هذا الكلام ولو من قبيل الإشارة.

هذا بالإضافة إلى أنه لم يعرف عن أئمة الدولة السعودية الأولى تعيين وكلاء لهم، بهذا المعنى، بل جرت العادة أن يتولى الابن الأكبر للحاكم قيادة الجيوش في عهد والده الأمر الذي يعده لقيادة الدولة فيما بعد.

ساق الصايغ جملة من الملحوظات حول بعض العادات أو الممارسات التي يزعم أنها كانت موجودة لدى حكام الدولة السعودية الأولى، وسنورد بعضاً منها للتدليل على ضعف روايته، إن لم نقل، عدم مصداقيته. ذكر في الموقف السابق أنه بعد إتمام المفاوضات والموافقة على ذلك الحلف، أقسم أعضاء الوفدين، أو كما قال: "تحالفنا على السيف والمصحف... فقرينا الفاتحة"(77). وهذا أمر مشكوك فيه لأن هذه من العادات غير المعروفة

(75) لم أجد لهذا الرجل، ولكن من المعروف أن آل هذال من شيوخ قبيلة عنزة، انظر: طلال بن عبادة الشمري، عقود الجواهر، ص38، وعثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص144- 145.

(76) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص108/ 2، 109/ 1، 110/ 2، 113/ 2، 114/ 1.

(77)نفسه، ص114/ 1.

في نجد، والأهم من ذلك أنه لا يجوز القسم بغير الله. أما بالنسبة للقسم على المصحف أو القرآن فإن الأمر ممكن بالنسبة للمسلمين، ولكن كيف ذلك بالنسبة للصايغ المسيحي الديانة؟! يبدو أن الأمر فات على الصايغ، ولكن حتى لو افترضنا صحة ذلك فإن إمام الدولة الضليع في أمور الدين لن يقبل بما يخالف الشرع.

وفي السياق نفسه ذكر الصايغ أنه بعد أن أُبرم الحلف جلسوا لتناول طعام الغداء، وابتدأ الإمام لقمة من كل صحن، ثم قال: "تفضلوا، المعنى كي يقيم الشك من مادة السم"[78]. وهنا نرى الصايغ لا ينسب الخبر إلى ما سمعه من إشاعات، بل يتحدث بصفته حاضراً لتلك الواقعة، ومفسراً للهدف من ذلك الإجراء، وهو أن الأكل غير مسمم، ويا ليت شعري كيف توصل إلى ذلك الاستنتاج الغريب عن شيم العرب؟! وسنرى أن هذه الرواية تتهاوى مثلما تهاوت مثيلاتها. وفي هذه المرة على يد الصايغ نفسه إذ ذكر في موضع آخر من هذا الكتاب أن من عادة الإمام ألا يأكل خارج بيته، أو كما قال: "ياكل (يأكل) بالحرم عند النسوان، ولا ياكل (يأكل) من اكل (أكل) السرايا ولا من يد أحد، ياكل (يأكل) من يد مرته (زوجته) فقط خوفاً من التسمم"[79]. وهنا نرى أن الإمام يأكل خارج منزل زوجته، ولكن يبدو أن الصايغ نسي ما ذكره آنفاً.

من ناحية أخرى فإن التاريخ يقف في وجه هذه الروايات، فقد ذكر صاحب لمع الشهاب في وصفه للإمام عبد الله بن سعود كلاماً مناقضاً لكلام الصايغ، إذ قال: "إلا أنه كان يظهر الأطعمة الفاخرة في مجلسه العام للخاص والعام"، وأضاف في موضع آخر قوله: "كان (الإمام عبد الله بن سعود) يحضر الولائم ويضيف الناس، ويحب ذلك"[80]. وفوق هذا كله فإن الصايغ لو فكر قليلاً، أو أن لديه فعلاً شيئاً من الأخبار الحقيقية

(78) نفسه، ص114/ 1.

(79) نفسه، ص113/ 1.

(80) مؤلف مجهول، كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، ص186.

عن الدرعية لعرف أن أئمة الدولة السعودية الأولى كانوا يخرجون للغزو على رؤوس جيوشهم ويقضون الأشهر تلو الأشهر خارج عاصمتهم، ويأكلون ويشربون مع جنودهم ويضيفون ويستضيفون.

وفي مجال العادات الاجتماعية أورد الصايغ ملحوظة تبدو غريبة في مجتمع الدرعية إذ أنه في أثناء حبكة للرواية ذكر أن الإمام بعد أن انفرجت الأزمة، استدعى الوفد للحضور إلى مجلسه، وبعد أن مثلوا أمامه ودار الحوار، أمر بالقهوة "أول وتاني (وثاني) وثالث"، وهذا أمر مقبول ومعقول أن تقدم القهوة أكثر من مرة في سبيل إكرام الضيوف.

لكن الصايغ زاد في الحبكة بإسقاطه عوائد أهل الشام على عرب الجزيرة العربية فوقع في هفوة عند وصفه للمشهد فقال: "وفنجانات (فنجانين) القهوة كبار مليانات، قهوة عظيمة حيث هو سلطان اليمن"[(81)]. ظن الصايغ أن القهوة تصنع بنفس الطريقة عند كل العرب، وهذا أمر غير صحيح فأهل الشام أو العرب خارج الجزيرة العربية يحمصون القهوة كثيراً مما يجعل قهوتهم سوداء داكنة كالقهوة التركية. أما في الجزيرة العربية بشكل عام، وفي منطقة نجد بشكل خاص فإن القهوة تحمص بطريقة أخف كثيراً، مما يجعل قهوتهم تميل إلى اللون البني أو الأشقر، ولذا فإن مذاق القهوة يختلف بشكل كبير، الأمر الذي يجعل الصايغ ربما لا يستسيغ قهوة أهل نجد بنفس الطريقة التي تخيلها، خاصة وأنه كان يحلم بغليون دخان ليصاحب تلك الفناجين.

وحول القهوة وقع الصايغ في هفوة أخرى ومركبة عندما وصف فناجين القهوة المستخدمة في مجلس الإمام بأنها كبيرة الحجم ومليئة بالقهوة، وهذا أمر مستبعد جداً إن لم يكن مستحيلاً؛ لأن عرب الجزيرة العربية يشربون قهوتهم في فناجين صغيرة بخلاف أهل الشام الذين يستخدمون فناجين أكبر حجماً. أما الشق الثاني من

(81) مخطوطة رحلة فتح اله الصايغ، ص 109/ 1.

الهفوة فهو ما ذكره حول أن الفناجين كانت مليئة بالقهوة، وهذا خلاف ما هو معهود عند عرب الجزيرة العربية حول مقدار كمية القهوة المسكوبة في الفنجان إذ تلزم الأعراف والتقاليد بأن تكون كمية قليلة لا تتجاوز ربع الفنجان، وقد يعد من العيب، في بعض المناطق، أن يقدم الفنجان للضيف مليئاً بالقهوة.

وحول الدعوة الإصلاحية وأئمة الدولة السعودية أورد الصايغ جملة من الأقوال والمفاهيم، وهي في مجملها إشاعات مكررة يرددها خصوم الدولة والدعوة. وهذه الإشاعات يمكن إرجاعها إلى أمرين: الأول جهل الصايغ بمدلولات كثير من الأمور والمفاهيم التي أشار إليها. ثانياً: ما كان يردده خصوم تلك الدولة، داخل الجزيرة العربية وخارجها، من افتراءات وشبه وشائعات كثيرة[82].

وبشكل عام فعند النظر إلى منهجية الصايغ، فإن المرء لا يمكن أن يجد عذراً أو مبرراً لهفواته وإيراده مثل هذه الأمور التي يقول إنه سمعها عن أئمة الدولة السعودية، فها هو يحدثنا واصفاً نشاطه في اليوم الثامن من إقامتهم في الدرعية إذ قام الوفد بما يشبه الجولة الحرة في البلدة، ثم قال: "ثم المسا (أي في المساء) رجعنا إلى المنزول (المنزل) وقيدت جميع ما شفته وسمعته في اليومية"[83]. وعليه فإن الصايغ لا يعتمد على ذاكرته، بل يدون ملحوظاته أولاً بأول.

وبالرغم مما قطعه الصايغ على نفسه من الالتزام بالدقة، فقد تحدث عن مسألتين لا يمكن أن يقولهما شخص زار الدرعية وتمشي في أسواقها وقابل حكامها وبعضاً من سكانها. المسألة الأولى: هي ما ذكره حول إجراءات تعيين الأمير الجديد، التي تبدأ بأن يتناول الطعام مع الإمام، ثم يتوضأ ويصليان سويةً، وبعد ذلك يقوم

(82) انظر على سبيل المثال لا الحصر ما أورده الصايغ في الصفحات: 105/ 2، 107/ 1، 109/ 1، 109/ 2، 110/ 1، 111/ 2، 112/ 1، 112/ 2، 113/ 1، 115/ 1.

(83)نفسه، ص110/ 2.

الإمام بتقليد الأمير المعين سيفاً، ويقول له: "قد أقمتك بأمر الله على عباد الله، اعدل في الرعية، وافصل في القضية، وأقسم بالسوية، واقبض الجزية (الزكاة)، واضرب أعناق السنية (أهل السنة)" [84]. والحقيقة أن هذا الكلام لا يستقيم عند مقارنته بالمصادر الأقرب للأحداث، وخاصةً عندما يصبح الأمر على شكل طقوس تبدأ بالأكل سوياً ثم الوضوء والصلاة، وتنتهي بتقليد السيف. والأدهى والأمر في هذه الإجراءات، هو ما بدا وكأنه نقل حرفي من نص الأمر الصادر، أو الفرمان كما يحلو للصايغ تسميته، الذي يأمر بأخذ الجزية وضرب أعناق السنية. إن علماء وحكام الدولة السعودية لا يستخدمون مصطلح جزية ولا يأخذونها، لأنها شيء مختلف، إنما الذي يأمرون عمالهم أو موظفيهم بأخذه هو الزكاة على اختلاف أنواعها. أما ما ذكره بخصوص ضرب أعناق أهل السنة فهي خير برهان على أن الصايغ لا يعرف شيئاً يعتد به عن الدرعية، وما تمثله من دولة، إذ كيف برجل يزعم أنه أمضى أربعة عشر يوماً في الدرعية، ويقول مثل هذا الكلام عن دولة تحمل على عاتقها نشر دعوة دينية. ويرفع حكامها لواء أهل السنة؟!

المسألة الثانية تتعلق بكيفية صلاة الإمام الحاكم، وقس على ذلك أتباعه، فذكر أن صلاته لا تختلف عن صلاة بقية المسلمين، "غير أنه لا يتقبل (يستقبل) جهة مكة كمثل المسلمين، بل على أي جهة كان جايز عنده" [85]. والحقيقة أن الباحث يحتار كيف يوصف مثل هذا الكلام إذا كان مصدره رجلاً يدعى أنه زار الدرعية؟! إن استقبال القبلة في الصلاة من الأمور المسلم بها لدى جميع المسلمين في كافة أصقاع الأرض، ولو أن الصايغ مشى تلك الديار عبر وادي حنيفة في طريقة إلى الطريف لرأي المساجد يمنة ويسرة ومحاريبها تجاه الكعبة

(84) نفسه، ص112/ 1.
(85) نفسه، ص112/ 2.

بمكة المكرمة. إن جامع الطريف المشهور لن يدع للصايغ بداً من رؤيته؛ لأنه يقع على طريق الصاعد إلى قصور الدرعية الشامخة، ولكن هيهات لروايات تراوح ما بين الخيال والشائعات.

لقاءات مع شخصيات في الدرعية:

كانت الشخصية الأولى التي أوردها الصايغ هو من سماه أبو السلام، وقد وصفه بأنه رجل طاعن في السن، حسن الأخلاق ويعمل في ديوان الإمام، أو كما قال: "أحد مدبرين (مدبري) الوهابي"[86]. لم يورد اسم هذا الرجل، فقد اكتفى بالكنية وهو أمر معقول إذ كان الرجل يكنى بابنه الأكبر، ولكن المشكلة هنا أن اسم "السلام" ليس من الأسماء المتداولة في نجد. ابتدأ دور هذا الرجل في الأيام الأولى من وصول الوفد إلى الدرعية فقد كان الدريعي يستدعيه عندما يريد لقاء الإمام، وانتهى دوره في رواية الصايغ عندما قدم الطعام من بيته لأعضاء الوفد، وذلك بعد أن انفرجت الأزمة في اليوم السادس من قدومهم الدرعية[87]. إن مثل هذا الرجل، بحكم عمله، كان يفترض أن يكون ماثلاً في كل اللقاءات اللاحقة ومراسم التوديع وغيرها من الفاعليات البروتوكولية.

انتهى دور أبو السلام ليبدأ دور شخصية أخرى لم تظهر إلا في اليوم السابع، وكأن الصايغ يريد أن يخلق دوراً لها لسرد بعض القصص. هذه الشخصية هو من سماه بـ "بالاضراموطي"، وابتدأ دوره بدعوة الوفد للعشاء في مساء اليوم السابع. مثل سابقة لم يورد من اسمه شيئاً سوى نسبته في هذه المرة إلى بلده حضر موت، وأنه "واحد من رجال ديوان الوهابي"[88]. بالإضافة إلى ذلك فإنه لم يخبرنا أي شيء حول منزل هذا الرجل، ولا أين يسكن؟

---

(86)نفسه، ص107/ 1.
(87)نفسه، ص107/ 1، 108/ 1، 8، 1/ 2.
(88)نفسه، ص1/109.

هل هو مثلاً من سكان الطريف أم من سكان البجيري، أم أنه يسكن في حي آخر؟ والحقيقة أن الباحث يتساءل كيف لرجل لا نعرف عنه شيئاً يسمح له باستضافة مثل هذا الوفد المهم؟!

وبالرغم من أن دور الحضر موتي انتهى بهذا الموقف الوحيد، إلا أن الصايغ روى عنه كثيراً من القصص والأسرار التي يزعم أنه أفضى بها إليه. جرى حديث مستفيض في تلك الليلة بين أعضاء الوفد وهذا الرجل إذ أخبرهم أن الناس يتظاهرون بالرضا من حكم "الوهابي" في حين أنهم يبطنون عكس ذلك. كما حدثهم عن ثروة الدولة، ومقدار التحف والأموال والسلاح والجواهر وغيرها من الأشياء الثمينة التي "أخذها الوهابي من على قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمكة"[89]. كما عدد كثيراً من محتويات الحجرة الشريفة التي يزعم أنها أخذت ومحفوظة "في خزينة الوهابي، فتأكد (من المؤكد) أنه أغنى من كافة الملوك"[90]. لقد زاد الصايغ في الكيل حتى طفح محملاً روايته ما لا يحتمل من الأساطير والمبالغات التي تدل على منتهى الجهل. إن من يقدمون على الهجرة إلى الدرعية غالباً ما يكونون مدفوعين بدوافع دينية، وإيمان عميق بمبادئ الدعوة الإصلاحية ومثلها، وهم على استعداد للدفاع عنها والتضحية من أجلها، ولذا فمن المستبعد جداً أن يفشي بأسرار دولته إلى مثل هؤلاء الغرباء. والسؤال المهم هنا هو هل يوجد شخص بهذا الاسم؟

الشخصية الثالثة التي ورد ذكرها عند الصايغ هو عبد الله الهذال الذي ورد ذكره قبل ذلك في معركة حماة المزعومة. دعا هذا الرجل أعضاء الوفد لوجبة عشاء في اليوم الحادي عشر من وصولهم الدرعية، ولكن الصايغ لم يخبرنا أين وكيف تمت تلك الوليمة؟

---

(89) نفسه، ص109/ 1.

(90) للمزيد حول هذا الموضوع، وما أثير حول ما أخذه السعوديون من محتويات الحجرة النبوية، انظر: عبد الرحمن الجبرتي. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار.- بيروت: دار الجيل، (د. ت)، ج3، ص595- 596، وملحوظات الشيخ أحمد بن رشيد الحنبلي، في شلحد، ص277.

أشار الصايغ إلى أن عبد الله الهذال كان قائد الجيش السعودي في معركة حماة، ثم أكد على أنه تصالح مع الدريعي في ذلك المجلس، وساد بينهما جو من المحبة(91). وقبل أن يختفي من الرواية ظهر عبد الله الهذال مرة أخرى ليصبح الرجل الوحيد الذي شارك مع الإمام السعودي (سعود أو عبد الله) في عقد ذلك الحلف مع الدريعي، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

الشخصية الرابعة التي تحدث عنها الصايغ في الدرعية لم تكن مجهولة مثل الشخصيات الأخرى، بل كان أميراً مشهوراً وقائداً شجاعاً ارتبط اسمه بتاريخ توسع الدولة السعودية الأولى في عسير والمخلاف السليماني والحجاز. كان ذلك الرجل هو عبد الوهاب أبو نقطة أمير عسير(92) الذي ورد ذكره في معركة حماة المزعومة سنة 1226هـ/ 1811م. ظهر أبو نقطة في رواية الصايغ في اليوم الثاني عشر بعد عقد الحلف مباشرة إذ دعا الوفد في مساء ذلك اليوم إلى وجبة عشاء(93). ومن الجدير بالذكر معرفة أن الصايغ سبق وأن أورد أوصافاً مخيفة لأبي نقطة فقال أنه: "أسود غامق، جسيم بمقدار ثلاثة أزلام (رجال)، شعره منفوش، عمره ما حلقه، دقن كبيرة نازلة إلى بطنه، النتيجة يفزع الجن"(94). لو كان الصايغ صادقاً في روايته فإنه لابد أن يعلق بعد ذلك اللقاء المباشر، ويخبرنا عن انطباعه ويورد أوصاف أبي نقطة شكل أدق، وهل أبو نقطة فعلاً شخصية مفزعة مثلما صوره لنا قبل اللقاء؟ أم أنه شخص مختلف؟ كما أنه لم يتطرق إلى حديث حول معارك الشام مثلما حصل مع عبد الله الهذال. وبالرغم مما بذله الصايغ من جهد في وصف أبو نقطة، وإيجاد دور له في الرواية، إلا أن الكارثة هنا هو أن الصايغ

(91)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص113/ 2، 114/ 1.

(92) هو عبد الوهاب بن عامر أبو نقطة المتحمي. تولى إمارة عسير بعد وفاة أخيه محمد سنة 1217هـ/ 1809م. قام بدور كبير في ضم عسير والحجاز والمخلاف السليماني إلى حكم الدولة السعودية الأولى. للمزيد من المعلومات، انظر: أحمد يحيى آل فايع. دور آل المتحمي في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى في عسير وما جاورها، ط1، 1426هـ، ص165- 234.

(93) نفسه، ص114/ 2.

(94)نفسه، ص47/ 2.

يتحدث عن رجل ميت، إذ أن أبا نقطة كان قد قتل في معركة وادي بيش[95] (المخلاف السليماني) سنة 1224هـ/ 1809م[96].

وفي السياق نفسه فإن كتب التاريخ تخبرنا أن ميدان نشاط غزوات أبو نقطة كان في مناطق عسير والمخلاف السليماني والحجاز، أما مشاركته في الأنشطة العسكرية للدولة السعودية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام فهو أمر مستبعد جداً، وإن لم يكن مستحيلاً، خاصةً في ظل عدم ذكرها في المصادر.

أمام هذه الحقيقة المرة، وغيرها مما ذُكر سابقاً، تتهاوى روايات الصايغ. وهكذا نرى أن جهل الصايغ، عدم مصداقيته، جعلاه يبحث عن مادة لروايته، وذلك باختلاقه أحداث ومواقف تتناقض مع واقع مجريات التاريخ الثابت من خلال المصادر المعاصرة؛ بالإضافة إلى ذلك فإن العادات والتقاليد العربية لا تؤيد ما ذهب إليه الصايغ في هذا الأمر؛ لأن العادة أن يولم أهل البلدة لضيوفها، أما أبا نقطة إذا حل في الدرعية فهو يعد ضيفاً من ضيوف الدولة، والأحرى أن يولم له الناس بدلاً من أن يولم لغيره.

ولكن يبدو أن شهرة أبو نقطة التي وصلت الآفاق، وارتباط اسمه بكثير من غزوات الدولة السعودية، خدعت الصايغ حتى ظن أنه من سكان الدرعية.

---

(95) يعد وادي "بيش من أكبر أودية تهامة ومآتيه من جبال السراة، وعلى ضفافة كثير من القرى والمزارع، انظر: محمد بن أحمد العقيلي. المعجم الجغرافي، مقاطعة جازان.- ط2.- جازان: النادي الأدبي: 1399هـ، ص80.

(96) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: عثمان بن عبد الله بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ص303- 304. وهاشم بن سعيد النعمي. تاريخ عسير في الماضي والحاضر.- الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، 1419هـ، ص153- 158.

ومما يلاحظه الباحث على روايات الصايغ حول هؤلاء الأشخاص الأربعة، بالإضافة إلى أدوارهم المتتابعة، هو أن كلاً منهم ارتبط بوليمة عشاء للوفد، وهذا أمر يثير التعجب والتساؤل، إذ كيف تسمح حكومة الدرعية لمثل هؤلاء الأشخاص باستضافة وفد رسمي؟

إن مما يبدو في حدود المعقول هو أن يكون هذا الوفد في ضيافة الدولة مهما طالت إقامته، ولو سمح لأحد باستضافته، فإن هذا سيكون حكراً على رجالات الدولة البارزين القاطنين في العاصمة.

مغادرة الوفد للدرعية:

ذهب الوفد في اليوم الثالث عشر من إقامته في الدرعية للسلام على الإمام والاستئذان للمغادرة. وبعد أن عاد أعضاء الوفد إلى نزلهم أرسل لهم الإمام هدايا، **وكانت موزعة كالتالي**[97]:

1- سبعة رؤوس من الخيل الأصلية التي لا تقدر بثمن، بواقع واحدة لكل عضو من أعضاء الوفد السبعة الرئيسيين.

2- سبعة عبيد، بواقع عبد واحد لكل عضو من أعضاء الوفد السبعة الرئيسيين.

3- سبعة هجن، بواقع هجين لكل عبد كي يركبوها في طريق العودة.

4- سيف فاخر للدريعي ذو غمد جلدي أسود.

5-ما نص الصايغ على أنه: "أيضاً لكل عبد مشلح حساوي أسود، وسيف ضبان[98] عظيم، وماية ريال فرنجي [99]". هكذا وردت عند الصايغ، أما في تحقيق شلحد فقد وردت بهذا الشكل: "وأيضاً مع كل عبد مشلح

(97)مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص115/ 1.

حساوي أسود... الخ"[100]، وبهذا يصبح المعنى المقصود هو: سبعة مشالح وسبعة سيوف وسبعمائة ريال. ولكن بالتدقيق في عبارة الصايغ نلحظ أنها يمكن أن تفهم بطريقة أخرى، وهو أن هذه الهدايا مخصصة لكل عبد من العبيد الخمسة الذين قدموا مع الوفد. وعند التدقيق في أمر هذه الهدايا نجد أن ليس بها ما يثير الشك حول مصداقية الرحلة، ولكن ذكرها لا يثبت أنها تمت.

وأخيراً جاء دور الوداع ففي اليوم الرابع عشر من قدومهم الدرعية ذهب الوفد إلى ديوان الإمام لتوديعه وشكره على الهدايا القيمة. وبعد الوداع خرج الوفد وبصحبته كما قال الصايغ: "جملة أناس من الأكابر وذوي المناصب، رافقونا نحو ساعة زمان، وأودعونا ثم رجعوا"[101]. وبالتمعن في هذه العبارة نرى أنها متوائمة مع طريقة الصايغ في رواياته التي تميل إلى التعميم، فهو لم يذكر ولو اسم رجل واحد من هؤلاء الأكابر الذين رافقوهم لوداعهم عند مشارف الدرعية. كما أن الصايغ لم يذكر كيفية خروجهم من الدرعية، ولا طريقهم الذي سلكوه، هل كان مثلاً عن طريق الوادي، وهو أقرب الاحتمالات، أم عن طريق الأماكن المرتفعة؟

وحتى مع لحظات الوداع يأبي الصايغ إلا أن يثير التساؤل حول مصداقيته بشكل أكبر، وهي مشكلة لازمت رواياته حول الدرعية، فقد ذكر أنه عندما كان الوفد يودع الإمام "وإذا حضر له هجان، من عرب الينبع يخبره بأن أرضي (جيش) محمد علي، والي مصر، خرج من الينبع بكل نظام وقوة نحو المدينة لامتلاكها"[102]. وكما أشرنا سابقاً، فإن مثل هذا الكلام يحرج من يحاول أن يجد مبرراً لمصداقية الصايغ؛ لأن ارتباط اختتام زيارة الدرعية بهذا

(98) لم يتضح معنى هذه الكلمة، ولكن يبدو أن المقصود نوع من أنواع السيوف.

(99) يبدو أن المقصود هو ما كان يسمى بالريال الفرانسي، وهي عملة نمساوية تسمى دولار ماريا تريزا، سكت في فيينا عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر، وكانت شائعة الاستعمال في الجزيرة العربية حتى أواخر عهد الملك عبد العزيز: انظر: نزار حسن آل عبد الجبار. العملات المتداولة في القطيف والأحساء من القرن العاشر إلى العهد السعودي: دراسة وثائقية.- ط1.- القطيف، 1430هـ، ص84.

(100) شلحد، ص270.

(101) مخطوطة رحلة فتح الله الصايغ، ص115، 2.

(102) نفسه، ص115/ 1، 115/ 2.

الحدث المهم الذي لا ينسى، يوقع الرواية في مأزق كبير، إن لم نقل ينسف كل رواياته حول الدرعية. إن قدوم القوات العثمانية. المصرية إلى ينبع، كما هو معروف، كان في سنة 1226هـ/ 1811م. وهذا يعني أن الإمام الحاكم لابد أن يكون سعود بن عبد العزيز، ولكن، كما أشرنا سابقاً، فإن الأوصاف التي أوردها الصايغ لذلك الإمام لا تنطبق عليه. وفي المقابل فإننا لو سلمنا جدلاً بأن الكلام حول الإمام عبد الله ابن سعود، إلا أنه لسوء حظ الصايغ لم يكن حاضراً حينذاك في الدرعية، بل كان على رأس قواته يتصدى للقوات الغازية، وذلك بصفته قائداً لجيوش والده الإمام سعود بن عبد العزيز. إن

لسان حال الموقف في روايات الصايغ حول الدرعية يقول: هل من سبيل للخروج من ورطة المصداقية؟!

طريق العودة:

خرج الوفد من الدرعية يريد منطقة حوران في بلاد الشام، ولكن الصايغ ذكر أنهم سلكوا "طرق الحجازي"[103]. وفيما يبدو للباحث أن الذي يخرج من الدرعية تجاه بلاد الشام لن يسلك الطريق الحجازي، بل سيسلك الطرق المؤدية شمالاً باتجاه مناطق القصيم وحائل والجوف ومنها إلى وادي السرحان باتجاه منطقة حوران. أما الذي يريد أن يسلك طريق الحجاز فلا بد أن يتجه غرباً باتجاه شمال المدينة المنورة ليلتقي مع الطريق الحجازي الأمر الذي سيكلفه كثيراً من الجهد والوقت ليقطع تلك المسافة من الدرعية إلى نقطة الالتقاء مع الطريق الحجازي. وكما كان الحال في طريق القدوم إلى الدرعية، فكذلك الأمر في طريق العودة إذ لم يورد الصايغ أسماء الأماكن التي مر بها.

(103) نفسه، ص116/ 1.

بعد خمسة أيام من مغادرتهم الدرعية قضوا ليلة عند البدو، وهبت عليهم ريح قوية استمرت لمدة ست عشرة ساعة، ولم تنقشع إلا بعد أن خلفت ثمانية من الموتى(104).

الخاتمة:

مما لاشك فيه أن كتب الرحلات تمثل مصدراً مهماً في كتابة التاريخ، إذ أن هذه المصادر تحتوي على معلومات اجتماعية واقتصادية يندر أن نجدها فيما سواها.

يمكن أن يرى الرحال المزود بسلاح العلم والمعرفة، في الديار التي يمر بها، كثيراً من الأشياء المهمة، التي قد لا ينتبه لها إلا القليل ممن هم يعيشون بين ظهرانيها، بحكم أنها أمور مألوفة بالنسبة لهم، ولا تثير الاهتمام. كما يمكن أن يلحظ الرحال بنظراته الفاحصة كثيراً من الظواهر وعادات الشعوب، وذلك من خلال زوايا مختلفة عن تلك التي ينظر بها من اعتادوا عليها وألفوها، وبهذا يحفظ لنا بعض جوانب من تاريخنا ربما أهملها أو غفل عنها المؤرخون المحليون. وعليه فإن الباحث في تاريخ الجزيرة العربية الحديث يسعد كثيراً عندما يسمع أن رحلة ما قد اكتشفت وحققت، لعل وعسى أن يكون بها ما يغطي بعض الجوانب الناقصة، ولذا تضيف شيئاً إلى المكتبة التاريخية. وبهذه الروح تلقف الباحثون في تاريخ الجزيرة العربية الحديث، رحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية، والتي جاءت ضمن عمل كبير شمل بادية الشام وصحاري العراق وأجزاء من بلاد فارس.

إن ما يخص الدرعية في هذه الرحلة، جاء مخيباً للآمال، وذلك بعد عرضه على ميزان النقد والتمحيص. في ضوء مطابقة ما ورد في مخطوطة الصايغ بما هو متوافر لدينا في المصادر الموثوقة. أخبرنا الصايغ أنه أمضى أربعة عشر يوماً في الدرعية، وبلغ به الحرص على دقة معلوماته أنه كان يدونها يومياً، كما أشار إلى ذلك في أكثر من

(104) ص116/ 2.

موضع من هذه الرحلة، وبالرغم من ذلك فقد كان الفشل حليفه فيما أورده من روايات وأخبار حول تلك المدينة وسكانها، بدءاً من رسالة الدعوة التي زعم أنه نقلها بحروفها. ولكنها احتوت عدداً من الأخطاء بما فيها اسم موجه الدعوة. ليس ذلك فحسب، بل جاءت معلوماته متناقضة، ومرتكبة في سياقها التاريخي، ومليئة بالأخطاء، وخاصةً حول بعض المواقف التي زعم أنه كان جزءاً منها، أو الشخصيات التي قابلها، أو الأماكن التي وصفها أو اهمل وصفها.

وهكذا فإن ما يمكن استنتاجه هنا هو أن الصايغ لم يشد الرحال إلى الدرعية، ولكنه جمع رواياته من أفواه الركبان والمسافرين، والاحتمال الأكبر أن جُل مصادره من التجار الذين يترددون ما بين نجد وبلاد الشام، ولابد أن كثيراً منهم زاروا الدرعية، أو سمعوا شيئاً من أخبارها التي كانت تملأ الآفاق في ذلك الزمان. وفي ظل هذا القلق وضعف المصداقية فلابد للباحث من الحذر قبل الأخذ من روايات الصايغ حول الدرعية.



الصفحة الأولى من المخطوطة



صفحة من المخطوطة وفيها بعض كلامه عن الدرعية



الصفحة الأخيرة من المخطوطة